

المحاضرة التاسعة

موقف أهل البلاغة من القدماء والمحدثين من الحديث النبوي

محاضرة موقف أهل البلاغة من القدماء والمحدثين من الحديث النبوي^(١)

وجدت علوم اللغة العربية - ولاسيما علم البلاغة - لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية، فعكف العلماء منذ القدم على ربط دراساتهم البلاغية بكتاب الله وسنة نبيه، إلا إن دراساتهم للشواهد القرآنية والشعرية تبدو أكثر وضوحًا وتناولًا من الحديث الشريف، فقد كانوا يكتفون بإيراد الشواهد الحديثية دون التعقيب عليها أو الغوص في معانيها، وكانت جهود العلماء في ذلك مبعثرة ضئيلة ضعيفة، خلطوا فيها بين الحديث الصحيح والضعيف والموضوع.

نعرض لبعض جهود القدماء والمحدثين في توظيف النص الحديثي في الاستشهاد البلاغي:

القدماء

- **الجاحظ:** ذكر في كتاب (البيان والتبيين) من كلام الرسول مما لم يسبقه إليه عربي، ولا شاركه فيه أعجمي، مما صار مستعملًا ومثلاً سائرًا، وأورد عدة منها: "يا خيل الله اركبي" وقوله: "مات حتف أنفه" وقوله: "لا تنتطح فيه عنزان". وقارن بين بعض أقوله ﷺ وأقوال بعض شعراء العرب.

وقد ذكر الجاحظ طائفة غير قليلة من الأحاديث سردها سردًا دون تعليق، أو تحليل، أو دراسة لدقائقها وأسرارها، وما اشتملت عليه من كنوز بلاغية.

- **ابن رشيق القيرواني:** في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وأدبه) نوه ببعض الأحاديث للتمثيل على قاعدة يضعها، وقلما كان يدرسها أو يحللها، إلا في حديث واحد وهو قوله ﷺ: "إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما"، واقتصر في ثنايا الكتاب على ذكر الأحاديث دون أن يقف عليها معلما أو شارحا، واكتفى بالحكم العام والاستحسان المجرد.

- **أبو حيان التوحيدي:** في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) أورد طائفة من أحاديث سيد الخلق ﷺ سردها سردًا دون تعليق أو تحليل أو دراسة لدقائقها وأسرارها البلاغية.

- **عبدالقاهر الجرجاني:** في كتابيه (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) فلم تكن له عناية بالحديث على النحو الذي كان بالنسبة للقرآن، وهذا طبيعي؛ لأن الإعجاز كان همه الأول، إلا بعض النماذج التي تناول فيها الأحاديث من وجهة نظر بيانية. وقد بلغت شواهد الحديثية في كتابه (أسرار البلاغة) (١٢) شاهداً، تكلم في بعضها من وجهة نظر بيانية فصل القول في بعضها ولم يفصل في البقية. أما

(١) المحاضرة مقتبسة من بحث بعنوان: "الحديث النبوي الأصل الثاني من أصوب الاحتجاج البلاغي"، أ. عبدالسلام الجبري (مجلة الجامعة الأسلمية - العدد ١٧٥ - السنة ٩).

كتابه (دلائل الإعجاز) فقد بلغت الشواهد الحديثية (٦) أحاديث على سبيل الاستشهاد لتأييد رأيه في القاعدة التي يقررها، ولم يقصد دراستها، ولم يتعرض للخصائص الفنية التي تمتاز بها تلك الأحاديث النبوية.

- ابن الأثير: في كتابه (المثل السائر) فقد كان أكثر المتقدمين استشهادًا بالأحاديث النبوية، فبلغت شواهد (١٣٠) شاهدًا، فقد كان ذا عناية جيدة بالسنة.

وقد خصص الفصل الخامس من كتابه لدراسة جوامع كلمه ﷺ، وعلق على بعضها، وأوردها شواهدًا على بعض الأبواب البلاغية كالتشبيه "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر" والاستعارة "لا تستضيئوا بنار المشركين" فاستعار النار للرأي والمشورة، أي: لا تتمدوا برأي المشركين، والكناية في قوله ﷺ: "يا أنجشة رويدك سؤفك بالقوارير".

المحدثون

قام علماء العصر الحاضر بدراسات حول البيان النبوي منها:

- مصطفى صادق الرافعي: في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) الذي أشاد بالبلاغة النبوية وكتب أعمق كتابة فقال عنها: "هذه هي البلاغة الإنسانية التي... حسرت العقول دون غايتها، لم تُصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة".

وكتب في (وحي القلم) صفحات حول البلاغة النبوية ودقتها، واستشهد بنماذج من هديه مشيدًا بروعة أسلوبه ﷺ ودقة فصاحته وعمق ألفاظه.

كلام الرافعي بعامه في البلاغة النبوية أقرب للمديح النبوي في كثير من جوانبها منها إلى الدراسة التحليلية، وإن حلل فإنه يحلل ويعبر عن إعجابه بأسلوب أدبي، يبين فيه جمال وروعة البلاغة النبوية.

- وقد قامت دراسات أخرى، ولكن كانت تأتي في أثناء الكتب التي كتبها بعضه الكتاب الذين اهتموا بالبلاغة النبوية، ومن أشهرهم: أحمد حسن الزيات، فقد كتب عددًا من المقالات ضمها في كتاب واحد أسماه (وحي الرسالة)، وأيضًا عباس محمود العقاد، فقد خصص فصلًا بعنوان (البليغ) في كتابه (عبقرية محمد) وغيرهم.